

موقع الأمة الإسلامية من الصراع الحالي

الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال

التاريخ بين قراءتين :

قراءة التاريخ نوعان: قراءة تقف عند حدود الأحداث فترويها كما وقعت أو تصوغها كما تحب أن تكون أو كما كانت تأمل لها أن تكون ولكنها في النهاية - على أهميتها - لا تخرج عن مجرد السرد الكرونولوجي للوقائع، فتقع أسيرة للحدث لا تكاد تضيف شيئا للقارئ خصوصا إذا كان هذا القارئ ممن عايشوا الحدث أو ممن صنعوه !

وقراءة تنطلق من الحدث، لا لتقف عند حدود الظاهرة وإنما لتتجاوزها إلى استخراج القواعد المتحركة في سير تلك الأحداث. إنما القراءة التي استطاعت أن تخرج من أسر السرد إلى التنقيب بعيدا في مقدمات الأحداث من أجل فهم دقيق لنتائجها الواقعية.

وهاتان القراءتان هما اللتان كشف عنهما ابن خلدون في مقدمة مقدمته، عندما نبّه إلى نظريتين مختلفتين للتاريخ، نظرة الوقائع التي تنتج القراءة الأولى ونظرة التفلسف التي تنتج القراءة الثانية. يقول: «إذ هو - أي التاريخ - في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع، وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق»¹.

والأمة - أمة - عندما تكون في وضع الانكسار الحضاري إنما تنفعها القراءة الثانية، قراءة التشريح والبحث الجاد عن مكن الداء وأسباب التردّي، وهي قلما تستفيد من القراءة الأولى بل قد تكون تلك القراءة حائلا بينها وبين المواجهة الصريحة لمشكلات

1 - محاضرة الأستاذ عبد الوهاب بوخلخال تحت عنوان (الأمة بين أن تكون موضوعا للصراع أو أن تكون طرفا فيه) ألقى بالمرکز الثقافي الإسلامي يوم 13 / 11 / 2003م الموافق لـ 18 رمضان 1424 هـ

الواقع المأزوم وذلك حين يغدو التغني بالماضي المشرق للآباء، عزاء، ومهرباً للآبناء من واقع لا يكف عن ملاحقتهم بأسئلته المخرجة !

والأمة الإسلامية اليوم في حاجة ماسة إلى عقول تحسن التعامل مع التاريخ وقراءته قراءة واعية، تستصحب فيها ذلك المنهج الذي ما فتى القرآن الكريم ينبئه إلى أسسه، حينما يدعونا إلى الاعتبار بقصص الذين خلوا من قبلنا وأن لا نكتفي بالمتعة من القص بل علينا أن نبحث عن القوانين / السنن الكامنة خلف نشوء الأمم والحضارات واندثارها، وعوامل قوة المجتمعات وأسباب تفككها والمنطلقات السابقة لاستئناف الدورة الحضارية إذا ما وقعت في ظاهرة التكلس...

إنه المنهج الذي نجد الإشارة إلى بذوره في مثل قوله تعالى تعقياً على أحداث بني النضير : «فاعتبروا يا أولي الأبصار» . -الحشر/2. ومثل قوله تعالى تنبيهاً لدور القصص في القرآن : «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» . يوسف/3

وأحسن القصص لا من أجل متعة القص وإنما للاعتبار وهو ما نبه إليه الله تعالى في ختام السورة ذاتها بقوله : «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» . يوسف / 111 وهي ذات البذور التي حاول ابن خلدون الإشارة إليها في نظريته الجديدة للتاريخ، وإن لم يسعفه الأجل لتطويرها وتطبيقها على ما دونه من التاريخ.

إننا -وأمتنا في هذا المنحدر الخطير- أحوج ما نكون للابتعاد عن تناول الأحداث سواء الماضية أو الحاضرة، بعيون التمجيد التي تغفل البحث عن الأسباب وتساهم في تقدير الأحاسيس وتبليدها أو بعيون اليأس التي تهمل البحث عن العوامل فتساهم في نشر الجبرية التي تقتل كل تفكير فضلاً عن السعي للعمل من أجل التغيير.

فالقراءة التي ندعو إليها هي التي تجعل من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري منطلقاً لتحليل مشكلات الأمة ورسم الخطط لبعثها من جديد هي التي تستهدي بالوحي لإنتاج رؤية واعية وواعدة تحسن ربط النتائج بمقدماتها القريبة والبعيدة متوسلة في ذلك بالآليات المنهجية الصحيحة من غير اصطناع لموضوعية باردة تجعل الدارس يتناول شأن الأمة وكأنه يتحدث عن موضوع لا صلة له به، كما عودنا المفكرون الذين ينطلقون من أرضية علمانية لتحليل ماضينا وحاضرنا

وهو ما جعل كتابات بعضهم على الرغم مما فيها من نفع تبقى خارج وجدان المتلقي العربي والمسلم!

سنة التدافع وموقع الأمة منها :

من السنن الخطيرة التي نبهنا القرآن الكريم إليها، سنة التدافع بين الناس في هذه الدنيا، فحثنا على ضرورة الانتباه إليها والتأمل في آثارها وعواقب إهمالها. ولذا نجد أن هذا التدافع يعرض في نصوص الكتاب العزيز باعتباره هو أساس التوازن بين بني البشر على اختلاف معتقداتهم الدينية وتباين مصالحهم الدنيوية وأن غيابه يرجح كفة الفساد ويجر الخراب إلى المعتقدات فضلا عن المجتمعات والأمم والحضارات.

وقد ذكر الله تعالى هذه السنة بشكل صريح في موضعين من كتابه الكريم... تعقيبا على حدثين تاريخيين، فرق بينها الزمن ولكن جمع بينهما السبب المحرك، فانطبق عليهما القانون ذاته، والسنة لا تكون سنة / قانونا إلا إذا حققت شرط الاطراد.

الموضع الأول : عند التعقيب على انتصار أهل الحق ممثلين في (داود) وأصحابه أمام أهل الباطل ممثلين في (جالوت) وجنوده...

قال تعالى : « فنهزمهم ياذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » . البقرة/ 251.

الموضع الثاني : عند التعقيب على إذن الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه باعتبارهم ممثلين للحق في أن يتخذوا من الجهاد القتالي وسيلة لدفع ظلم قريش باعتبارهم ممثلين للباطل . قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » . الحج / 39 - 40

وإقرار هذه السنة يأتي انسجاما مع سنة أخرى ، وهي كون التاريخ الإنساني على وجه هذه الأرض إنما يصنع من خلال التوتر بين تيار الحق وتيار الباطل ، والحق والباطل أو الخير والشر في هذا الوجود مكونان أصليان قضت حكمة الله تعالى أن يمازجا الحياة وأن يخالط أعمال الأحياء وشؤونهم .

ومفهوم التدافع الذي يطرحه القرآن الكريم يبدو أكثر دقة في التعبير عن العلاقة بين بني البشر من مفهوم الصراع الذي تروج له الحضارة الغربية في الآونة الأخيرة .

فأصحاب الصراع الحضاري إنما كشفوا عن جزء من سنة الله تعالى في الاجتماع البشري وهو الجزء الذي يتخذ فيه التوتر شكل صدام لا مجال للالتقاء معه بحيث يكون وجود أحد طرفي الصراع مشروطا بانتقاء الثاني وهذا تصور حالم يفترض إمكانية غلبة فكرة على فكرة إلى درجة الزوال والاندثار، ومن هذه الحيشية يبدو التطابق الذي ذهل عن ملاحظته الكثيرون، بين دعاة نهاية التاريخ ومروجي مفهوم حتمية صراع الحضارات، فزيادة على أن كلا الطرفين ينبعان من جذر حضاري واحد - وهو التصور الغربي الأمريكي - فإن النتيجة التي يصلان إليها واحدة أيضا وهي إعطاء نهاية (مثالية) لوجود الإنسان على وجه الأرض !!

فمفهوم الصراع على هذا، تكريس للأحادية الحضارية، بل محاولة لنفي خاصية التمايز بين الناس من خلال تنميط الأفكار والتصورات وهو تبسيط سقط فيه أولئك المنظرون نتيجة انخداعهم بالتنميط الذي سببه اشتراك الناس - على اختلاف أصولهم - في التعامل مع أشياء الحضارة ومنتجاتها المادية .

أما مفهوم التدافع - فهو كما قلنا - أكثر دقة في التعبير عن العلاقة بين البشر لأنه لا يفترض الجانب السلبي دوما للعلاقة كما لا يفترض زوال الآخر زوالا كلياً ذلك أننا عند التأمل والبحث عن آليات تطبيق هذه السنة نجد ما يلي :

أ) إقرار ظاهرة التعدد بين بني البشر:

التعدد في قبولهم للحق والتعدد في البقاء على القناعات التي ورثوها أو آمنوا بها، كل ذلك بمشيئة الله تعالى . ومن هذه النصوص الموضحة لهذه الجزئية، قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . المائدة / 48

وقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » . هود / 118 ، 119 .

وقوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » . الشورى / 8

وقوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سفقا من فضة ومعارج عليها يظهرون » . الزخرف / 32 .

ب (الدعوة إلى الحوار كوجه آخر من أوجه التدافع :

فالتدافع لا يكون فقط من خلال الصراع بل قد يكون - وهذه هي حالته الأصلية - من خلال دعوة المخالف على الحوار وهو ما نجده مقررًا في قوله تعالى : «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون». آل عمران / 64

ج (إقرار مبدأ الحرية بالنسبة للإنسان :

حرية التفكير ثم حرية المعتقد، وهو ما تؤكدُه العديد من الآيات، كقوله تعالى : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي». البقرة / 256
 وقوله تعالى : «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر». الكهف / 29

د (إقرار إمكانية الخلاف العقدي عند الفشل في الإقناع :

فالتدافع حينما يأخذ شكل الحوار، لا يعني بالضرورة حمل الطرف الآخر على الإقناع بما نعتقده من الحق، وهذا ما نستشفه من التحديد لوسائل الدعوة إلى الحق كما في قوله تعالى : «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين». النحل / 125

وقوله تعالى : «لكم دينكم ولي دين». الكافرون / 06

فسنة التدافع لا يمكن الخروج عن قوانينها وتأثيراتها، شأنها في ذلك شأن أي سنة أخرى وضعها الله تعالى في هذا الوجود لتضبط حياة الإنسان في جانبها المادي أو المعنوي وكذا في جانبها الفردي أو الاجتماعي، ومن هنا يكون لزاما علينا أن نقرأ تاريخ أمتنا انطلاقاً من هذه السنة، وهذه القراءة ستمر حتماً عبر الإجابة عن سؤال جوهري وهو (أين يقع موضع هذه الأمة مما يحدث من تدافع بين أُمم الأرض اليوم؟)

وطرح السؤال عن واقع الأمة ومصيرها لا يقع ضمن الترف الفكري، وإنما هو من صميم البحث عن حل واقعي للأزمة التي تتخبط فيها اليوم، والقدرة على السؤال بشكل صحيح هي أهم مرحلة من مراحل البحث عن الحلول... قرب سؤال يصاغ بطريقة خاطئة فيزج بالأمة في متاهة أخرى تعمق أزمتها وتزيد من توسيع الشقة بينها وبين الوصول إلى الحل.

ولقد عانت هذه الأمة من الأسئلة الخاطئة التي طرحتها النخب منذ ما اصطلح على تسميته بعصر النهضة. فبعض الأسئلة أنتجت مقولات عمقت التخلف من حيث أرادت الوصول إلى التقدم والتمدن وعمقت الاستبداد من حيث إرادت الوصول إلى الحرية والديمقراطية، وعمقت الفقر وإهدار مقدرات الأمة من حيث إرادت الوصول إلى التنمية، وعمقت الفاقة والتفكك الاجتماعي من حيث إرادة الوصول إلى الوحدة والترابط، وعمقت التبعية للغرب من حيث إرادت الوصول إلى الاستقلال... باختصار أنتجت لنا أزمة بدل أن تقودنا إلى الحل!! وهذه ظاهرة جديرة بالدراسة حتى لا نستمر في سعينا المجنون خلف السراب، فإذا وصلنا إليه اكتشفنا أننا لازلنا نراوح في أماكننا بل ربما ارتددنا عما خلفه لنا أسلافنا خطوات وخطوات!

فإذا رجعنا إلى السؤال عن موقع الأمة من عملية التدافع الحضاري، فإن القسمة العقلية (أي على المستوى النظري) تعطينا احتمالين:

- إما أن تكون الأمة طرفاً في التدافع، بحيث تكون لها فاعلية في صناعة الأحداث والتأثير في مجريات الأمور بما يحقق مصالحها ويخدم أهدافها.
- وإما أن تكون موضوعاً للصراع، بحيث تكون في وضع التركة التي اجتمع حولها من يريد اقتسامها والظفر بأكبر حصة ممكنة منها.

بعبارة أخرى إما أن تكون أطراف اللعبة أو أن تكون هي وسيلة لعب الآخرين. هذه هي القسمة التي يعطيها لنا العقل، ثم يأتي بعد ذلك الواقع ليرجح أحد الاحتمالين، وترجيح الواقع يمر كما أسلفنا من خلال القراءة الواعية للتاريخ، ثم صياغة هذه القراءة في أسئلة صحيحة واعدة بإمكانها أن تنتج حلولاً حقيقية.

بمعنى آخر، أن مساءلتنا للواقع قد تقودنا إلى اعتبار أنفسنا أطرافاً في الصراع وهذا يدفعنا إلى بناء تصور عن الذات وعن الآخر يخدم هذا الاتجاه... وهو ما جنحت إليه بعض النخب ذات التوجه العلماني الليبرالي، حين تطرفت في تسفيه الحديث عن الهوية والخصوصية واعتبرت كل ذلك تمسكاً بالآوهام وحين تطرفت أيضاً في الترويج لقيم العولمة تحت غطاء المشترك الإنساني وحتمية الثقافات والحوار غافلين عن الآلام التي تصيب الأمة ممن يعتبرونهم شركاء في الحوار أو أطرافاً في عملية الثقاف...

وهو يجعل الخطاب العلماني يبقى في عمومه بعيداً عن وجدان الفرد البسيط في الأمة، ويبقى بذلك بعيداً عن أن يكون حلاً ومخرجاً من الأزمة.

وقد تقودنا المسألة للواقع إلى اعتبار أنفسنا موضوعا للصراع وهذا يدفعنا أيضا إلى بناء تصور عن الذات وعن الآخر يخدم هذا التوجه... وهو ما جنحت إليه النخب ذات التوجه الإسلامي والقومي والوطني واليساري... وهذا الاتجاه وإن - أيده الواقع - إلا أن أصحابه إلى الآن عجزوا عن صياغة قراءتهم في أسئلة قادرة على تحويل عواطف الرفض لدى الجماهير إلى مشروع نهضوي، يقضي على أسباب التخلف وينقل الأمة إلى مستوى أن تكون طرفا في معادلة التدافع أو الصراع الحضاري... وهذا الغموض لدى هذا الاتجاه هو الذي ولد العديد من المظاهر المرضية عند الممارسة كالاضطراب في تحديد العلاقة مع الأنظمة الحاكمة التي تفنقروا إلى الشرعية، وكبروز العنف والتطرف، وكالخلط بين الوسائل والغايات في الممارسة السياسية... ويخشى أن يضيع الاتجاه السند العاطفي الذي يحظى به لدى الجماهير المقهورة في وطننا العربي إن لم يتم بوقفه جادة يعيد من خلالها صياغة أسئلته وتحديد معالم تحركه.

الأمة على ضوء حديث الوهن :

لقد بدأنا كلامنا من خلال الحديث على ضرورة القراءة الواعية لما تمر به الأمة اليوم، من أجل استشراف واعد للمستقبل، ونحن في هذا العنصر، سنحاول إبداء وجهة نظر في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا انطلاقا من توصيف ذكره النبي - صلى الله عليه وسلم - في أحد أحاديثه، مع محاولة الوصول إلى تحليل يُقربنا من الفهم لما يحدث ولما يجب أن نفعل من أجل التغيير.

روى أحمد وأبو داود عن ثوبان - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت).

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي اصطلح على تسميتها (أشراط الساعة الصغرى)، والتي نجد في العديد منها إخبارا بجملة من الأمراض التي ستصيب الأمة في مراحل مختلفة من تاريخها هي أحاديث - كما نبه إلى ذلك الدكتور يوسف القرضاوي - ظاهرة إخبار لكن حقيقتها تنبيه للأمة كي تتفادى هذه الأمراض أو تسعى للخلاص منها إن هي وقعت فيها. (2)

ومن خلال هذا الحديث، ندرك أن الأمة قد تمر بها ظروف تجعلها في مستوى حضاري يجعلها عرضة للانفعال بدل أن تكون منتجة للفعل مؤثرة في الأحداث فهو " يشير إلى مؤامرة دولية تتداعى فيها الأمم على المسلمين الذين أصبحوا لقمة سائغة لكل جائع أو طامع، وهذا ما صدقه الواقع الذي عايشناه، فقد اجتمع علينا الشرق والغرب، واليمن واليسار، وأهل الكتاب وأهل الإلحاد (3)...

قد يكون هذا هو فحوى الحديث بيد أننا نلاحظ أن الصحابة -رضوان الله عليهم - تعاملوا معه بوعي الذي يدرك الغاية من مثل هذه الإخبارات النبوية عن الغيب فوجدناهم يتساءلون عن سبب هذا المآل وعن تفاصيل المرض، ووجدنا النبي - صلى الله عليه وسلم - يشخص المرض ويصف ضمنا العلاج.

الفكرة حين تنتقم لنفسها :

النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يشخص المرض بين أن الهزيمة التي ستمنى بها الأمة في مرحلة ما من تاريخها ليس مرجعها إلى قلة في العدد، إذ أن هزيمة بهذا المستوى، بحيث تصبح فيها لقمة سائغة يتدافع لالتهاونا الطامعون والجياح لا تكون - عادة - إلا من قلة في العدد من جانبنا وتكاثر في جانب الأعداء، وإنما مرجعها الحقيقي إلى اختلال في القيم التي صارت تحكمنا. والنبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا يعيدنا إلى الأصل الذي نشأت على أساسه هذه الأمة وهو أنها أمة تدين في وجودها إلى فكرة ومبدأ، وهذه الفكرة ضاربة بجذورها إلى أبعد نقطة في الوجود البشري، حتى لتبدو أسبق وجودا من الأمة ذاتها، أو ليس القرآن يخبرنا : «هو سماكم المسلمين من قبل» الحج / 78. وعلى هذا يكون كل مساس بتلك المبادئ المؤسسة للأمة مساسا بالأمة ذاتها، فيفقدتها مقومات الوجود الفاعل، ويحرمها من النصر وإن حازت في الظاهر أسبابه فيتداعى الطامعون لالتهاونها على الرغم من كثرتها، وتفقد وزنها بين الأمم، فلا تكون لها هبة وإن تعدد أفرادها.

والفكرة - كما يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تنتقم لنفسها حينما تتعرض للخيانة من طرف حاملها... وليست كوارث التاريخ في مختلف الأزمان سوى النتيجة التي تكون فورية انتقام الأفكار التي خانها أصحابها (4).. فلا عجب إذا أن نجد التلازم بين بعد الناس عن الدين الحق وبين ظهور العجز عن الانتصار حتى في أكثر قضايانا عدالة !!

وحين نعود إلى الحديث السابق، نجد أنه في الظاهرة لا يحدثنا عن أسباب المرض وإنما يشير إلى أعراضه التي تظهر على مستوى علاقة الأمة بغيرها من الأمم وهذه الأعراض هي:

أ / الغنائية : وقد صور من خلالها النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمة في صورة غطاء السيل، وهي صورة دقيقة التعبير وجديدة الإيحاء بالمستوى الاجتماعي الذي انحطت إليه الأمة، مستوى (اللاتجانس) و(اللاترابط) من جهة لأن تركيبة الغطاء تتكون من الزبد والقش والأوراق وحتى الأوساخ...!! ومستوى الخفة ثنائية إلى الدرجة التي تجعلها تطفو على السطح دون أن تكون لها جذور ضاربة في الأعماق تعصمها من الاضطراب وتلاعب التيارات!!

ب / زوال المهابة من صدور الأعداء : هو تعبير عن الخروج من مساحة الفعل والتأثير أو مساحة التدفق كما أسلفنا القول من قبل!! وتصبح معه الأمة خارج حسابات أعدائها إلا من حيث كونها موضوعا للصراع أو قصعة يتداعى الأعداء لاقتسامها بحسب تعبير الحديث!!

ج / الوهن : وهو الضعف العام الذي يجعل الأمة ضعيفة، متناقلة الخطى في مسرح الأحداث، بطيئة في الاستجابة للتحديات، ذاهلة عما يكيد لها خصومها وأعداؤها... وهي تماما الأعراض التي تظهر على الفرد حين يسكن الوهن أطراف جسمه، فيصبح الجسد - وإن كان ضخما - عائقا عن الحركة وسرعة الاستجابة.. وهو ما يجعل الأمة في موضع اللقمة السائغة للطامعين، وإن كان عددها ضخما!! وهذا الوهن فسر في الحديث باختلال التصور تجاه الدنيا والآخرة، أيهما الوسيلة وأيها الغاية. وهو ما سنعود إليه بالتفصيل لاحقا.

هذه هي الأعراض التي يبدو أن الحديث في ظاهره يشير إليها، بيد أننا عند التأمل نجد أن خلف هذه الأعراض إشارة إلى الأسباب، ذلك أن سياق ذكر الأعراض وبين أنها ظهرت في الأمة كعقوبات ربانية... فنجد في رواية الإمام أحمد (ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن)، وأوضح من ذلك ما نجده في رواية أبي داود (ولينزع الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذف في قلوبكم الوهن).

فإذا كانت العقوبة لا تكون إلا بسبب، فمن الواجب أن نبحت خلف هذه الأعراض/العقوبات، عن الأسباب التي جعلت الأمة ينالها ما نالها. وبالعودة إلى ما استفتحنا به هذا العنصر يمكننا القول أن هذه العقوبات الربانية لم

تكن سوى تعبيراً عن انتقام الفكرة لنفسها عندما تعرضت للخيانة من طرف حامليها...
 فوجود المسلمين كأمة مرتبط - ولا شك - بشكل أساسي بمدى وفائهم للفكرة المؤسسة لذلك الوجود.

والفكرة الإسلامية التي هي قوام الأمة إنما تقوم في الحقيقة على الأسس التالية :

أ / **الوحدة والتجانس** : وهو ما نجده مقررًا في العديد من نصوص الكتاب والسنة.
 فنجد قوله تعالى : «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون» . الأنبياء / 92
 وقوله تعالى : «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» . المؤمنون / 52
 وقوله تعالى : «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» الصف / 4
 وعند البخاري ومسلم وأحمد (تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى).

والوحدة والتجانس إنما يكونان ضمن التكامل كما يرشدنا الحديث أي أن تكون الأمة واحدة ومتجانسة لا يعني ذلك انتفاء التمايز بين أفرادها ، فهي كالجسد بأعضاء متباينة من حيث الوظيفة والشكل والحجم ولكنها كلها تخدم مفهوم الجسد الواحد.

ب / **القوة والمهابة** : وهو ما نجده في قوله تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» الأنفال 60 ...

وقوله صلى الله عليه وسلم كما هو عند مسلم وابن ماجه وأحمد : المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير.

ج / **جعل الدنيا وسيلة والآخرة هي الغاية** : وهي العلاقة التي يعرضها الإسلام في مصدره عرضاً متوازناً تجعل المسلم ينظر إلى الدنيا نظر المطية التي تحملها إلى الآخرة ، فيحرص عليها حرص المسافر الذي لا يجد إلا وسيلة وحيدة لنقله إلى غايته ، وهو مع حرصه ذاك يبقى دوماً مشدوداً إلى الغاية ، فلا يعتر بقاء الانتظار مهما بدت جميلة أو مغرية ، وفي ذلك نجد قوله تعالى : «الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع» . الرعد / 25
 وقوله تعالى : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا» . القصص / 76

وما ذكر في الحديث من أعراض إنما أصيبت الأمة بها نتيجة لمسلكتها المتناقض في الدنيا مع ما تقتضيها أسس الفكرة التي قام بنائها الأول عليها... وجدير بنا الوقوف عند العرض الأخير بمزيد من التفصيل ، لأنه يبدو أكثر المظاهر دلالة على انحدار الأمة إلى مستوى المهانة بين الشعوب إلى درجة الخروج من مسرح الأحداث والبقاء على جوانبه ،

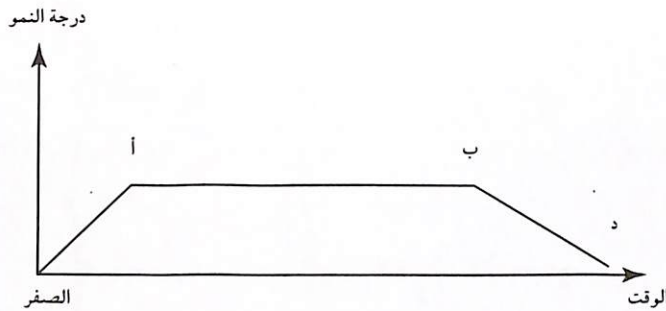
موضوعاً لتصارع الفاعلين أو بتعبير الحديث قصعة يتداعى الطامعون لاقتسام ما فيه من طعام سائغٍ للأكليين !

الوهن أو حين تسيطر الغريزة على السلوك : للأستاذ مالك بن نبي - رحمه الله - مداخل عديدة في تحليل مشكلة الحضارة ومحاولة الإجابة عن السؤال الملح الذي طالما شغل أذهان المصلحين منذ عصر النهضة، أعني بذلك السؤال عن سر التردّي الحضاري الذي أصاب الأمة، فقذف بها إلى أطراف التاريخ ضعيفة خائرة القوى، بعد أن كانت ولقرون عديدة في مركزه، قوية فاعلة تبسط سلطانها المادي والمعنوي على أكثر بقاع الأرض... فكان أن تناوله من زوايا مختلفة بعد أن اقتنع بأن مشكلة كل أمة إنما هي في الحقيقة مشكلة حضارتها، وأنه لا سبيل للخروج من المأزق الذي وقع فيه المسلمون اليوم إلا بالعودة لتحديد المرحلة الحضارية التي يحيونها، كي يتمكنوا بعد ذلك من تحديد الخطوات الواجب سلوكها نحو الحلول الجادة.

وبناء على هذا فقد وضع للدورة الحضارية ثلاث حقب، يكون لكل حقبة قيمتها الدافعة والمتحركة في سلوك الأفراد هذه الحقب موزعة بالشكل التالي:

- الحقبة الأولى : ويكون المحرك فيها هي الروح
- الحقبة الثانية : ويكون المحرك فيها هو العقل
- الحقبة الثالثة : ويكون المحرك فيها هي الغريزة

وهذا التحليل يمثل له بن نبي بالرسم التالي:



يقول موضحاً هذه المسألة: ... ويمكن التعبير عن هذا التطور بطريقة أخرى، من ناحية الكيف، في الرسم البياني الذي يترجم هذه الدورة التطورية التي تمر بها كل حضارة.

والمراحل الثلاث في هذه الدورة تعبر عن الأدوار التي يمر بها المجتمع : الحالة الكاملة، فيها تكون جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة (الروح) ، ومتصلة بالاعتبارات ذات الطابع الميتافيزيقي .

والمرحلة الثانية هي المرحلة التي تكون فيها جميع الخصائص والملكات تحت سيطرة (العقل) خاصة ومتجهة نحو المشكلات المادية .

أما المرحلة الثالثة فتصور نهاية تحللها تحت سلطان (الغرائز) المتحررة من وصاية الروح والعقل ، وفيها يصبح النشاط المشترك مستحيلا ، ضاربا بأطنابه في أغوار الفوضى والاضطراب . (5)

وفائدة هذا التحليل - وإن أطلنا الوقوف معه والنقل عن صاحبه - أنه يساعدهنا على فهم صفة (الوهن) التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق .

فالوهن شرحة الحديث بأنه (حب الدنيا وكرهية الموت) . وهاتان صفتان طبيعيتان في كل إنسان ، ما من أحد إلا وهو بطبيعته محب للحياة مؤمل للعيش ، كاره للموت نافر من النهاية . فما الذي يجعل هذين الأمرين الطبيعيين سببا لما سيصيب الأمة من سقوط ؟ خصوصا وقد عودنا الإسلام باعتباره دين الفطرة أن لا يتنكر لما هو من فطرة الإنسان وطبيعته .

إنه لا يخرجنا من هذا الإشكال إلا الاستعانة بالتحليل المذكور أعلاه ، فعلى ضوءه يمكننا القول أن النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن المرحلة التي يصبح فيها للغرائز سلطان على السلوك أكبر من سلطان الروح أو سلطان العقل .

ذلك أن الله تعالى ركب في الإنسان الغرائز لتكون معينة له على تحقيق رسالته في الوجود شريطة أن تكون هذه الغرائز تحت رقابة العقل والروح ، لا أن تستقل بالتحكم والتوجيه كما هو الحال عند الحيوان .

والأمة التي يكون أفرادها قد أسلموا قيادتهم للروح والعقل ونظموا على ضوء تلك القيادة الغرائز تكون الأمة مؤهلة للحضارة والقيادة . . . أما الأمة التي تنطلق فيها غرائز أفرادها حرة طليقة منفلة من كل رقابة عقلية أو ضوابط روحية فهي أمة واهنة واقعة حتما خارج الحضارة .

فحب الدنيا عندما يكون تحت سيطرة الروح أو رقابة العقل ، إنما يكون حبا للدنيا باعتبارها وسيلة لغاية أسمى ، هي من منظور الروح (رضوان الله في الآخرة) وهي من

منظور العقل (تحقيق الحياة الكريمة) وهذا ما نلمسه - بحسب تعقيب بن نبي - في المرحلة الأولى والثانية من مراحل حضارتنا الإسلامية، حيث في الأولى، كانت الحركة - حركة الفرد والمجتمع والأمة - وثيقة الصلة بالدافع الروحي عميقة التأثير بالبائع الإيماني، فلا تكاد تسمع للغريزة إلا صوتاً خافتاً ما يلبث أن يلاحقه سوط الروح وتذيبه حرارة الإيمان.. وفي الثانية، استلم العقل زمام القيادة فوجهت الغرائز لتكون عوامل بناء لحضارة قادت البشرية قروناً متطاولة من الزمن.

وكذلك الشأن بالنسبة لكرهية الموت، فهو تحت سلطان الروح ورقابة العقل، إثراء للغاية التي من أجلها يعمل الإنسان وهي الازدياد من الخير، خير الدنيا وخير الآخرة، والموت والحياة بهذا المفهوم يكون حبهما أو كرههما محكوماً بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر). أخرجہ مسلم عن أبي هريرة

أما إذا كان حب الدنيا وكرهية الموت محكوماً بالغرائز، فعندها يدب التحلل إلى كيان الأمة، فيصبح - كما يقول بن نبي - النشاط بين أفرادها مستحيلاً، ضارباً بأطنابه في أغوار الفوضى والاضطراب. وهو المظهر الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم (بالغناء)... والغناء كما قلنا من قبل، تعبير عن حالة التفكك واللاتجانس بين أفراد الأمة.

فالتلازم بين النشاط الاجتماعي بين الدوافع المحكومة بالصالح العام وتحقيق منفعة المجموع وبين الوحدة والتجانس بين أفراد المجتمع. إذ بمقدار حرص الجميع أو الأغلب على تغليب المصلحة العامة وترجيحها بمقدار ما يكون للمجتمع استقرار وللأمة قوة ومنعة من التردّي والسقوط... وتغليب الصالح العام لا يكون إلا إذا استطاع الأفراد كبح جماح الغرائز وضبطها بضوابط الروح والعقل.

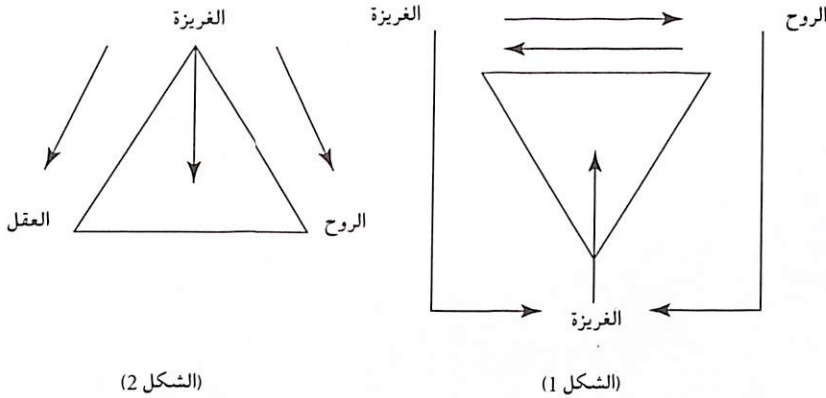
أما إذا أطلقت تلك الغرائز وصارت هي المتحكمة في سلوك الفرد داخل المجتمع، تغلبت المصلحة الشخصية على المصلحة العامة. وبرزت في المجتمع أمراض أخرى كالأثرة والشح والتعصب للمنفعة الذاتية، وعدم الاهتمام بأحوال الآخرين وهي التي أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعضها في قوله لأحد أصحابه: (حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه) أخرجہ الترمذي وابن ماجه وأبو داود.

فالوهن على هذا ليس سوى الاختلال الواقع بين الدوافع الثلاثة في حياة الفرد ومن ثمة

في حياة الأمة، أعني بذلك (الروح)، (العقل)، (الغريزة).

فعندما تكون الأمة في بداية صعودها الحضاري تكون حركتها مدفوعة بتلك الطاقة الروحية الخلاقة والمبدعة، وهي المرحلة التي تكون الطموحات فيها تكاد تتعالى عن الواقع، ومن هنا، وجدنا البدايات دوماً توصف بأنها المرحلة الذهبية، وهي التي تبقى على الدوام تشكل المعيار والمقياس الذي تحاكم إليه المراحل التالية، بل تكون الحلم الذي يراود المازومين فيتشوقون لاستعادته من جديد.... ثم ما تلبث هذه الأمة أن يخف فيها الدافع الروحي ليحل محله الدافع العقلي، فترتبط الحركة بمشكلات الواقع أكثر.... فإذا جاءت المرحلة الثالثة دبّت الفوضى في المجتمع بتحكم الغريزة في السلوك، فيكون دخول الأمة مرحلة السقوط الحضاري.

والرسمان التاليان يبيّنان هذه العلاقة بين هذه الدوافع الثلاثة، وتأثير ذلك على السير الحضاري للأمة.



ففي (الشكل 1) نلاحظ فعالية الروح والعقل، وضبطهما للغرائز، فتكون النتيجة ارتفاع الخط الحضاري للأمة، بينما في (الشكل 2) نلاحظ انقلاباً في العلاقة، حيث أصبح للغريزة تأثير على الروح والعقل بما يجعلهما متجهين إلى الأسفل، مع انعدام الصلة بين الروح والعقل أيضاً بعكس الحالة الأولى، فكانت النتيجة اتجاه الأمة نحو الانحطاط والتردي الحضاري.

فهذا الحديث بقدر ما رسم لنا مسيرة السقوط، فهو أيضاً يعطينا سبل النهوض ثانية من كبوتنا وذلك بأن نعيد التركيب السليم لدوافع السلوك، بحيث يعود للروح دورها وللعقل

سلطانه... وهو أمر ليس بالهين بلوغه، فإذا كان الوصول بالأمة إلى مستوى التحضر أمراً شاقاً، فإن بعثها لاستئناف مسيرتها الحضارية من جديد أشد وأصعب، ذلك أن الذي يعيش بعد سقوط حضارته يجد نفسه يرزأ تحت ثقل الحاضر بمشكلاته وتحدياته، وثقل الماضي بأمجاده، وإنجازاته، فإذن هو ممزق بين حاضر يؤلمه وماض يطوف بأحلامه يشده إلى الدعة والسكون والتغني بإنجازات من مضى... وقلماً يسلم له المستقبل!

إننا نحتاج لإعادة صياغة الإنسان من جديد، صياغة عقله ووجدانه، ورؤيته لأمر الحياة... وكل هذا يقتضي جهوداً جادة على مستوى مناهج التربية والتكوين، حتى نتمكن من بناء الفرد الجديد القادر على تجاوز السلبية والوهن الذاتي كي يكون مؤهلاً في النهاية لإخراج أمة من السلبية والوهن الحضاري.

بعبارة أخرى، يخرج الأمة من أن تكون موضوعاً للصراع أو أن تكون طرفاً فيه. وإنه لأمر - على الرغم من صعوبته - ممكن شريطة أن نحسن قراءة تاريخنا وأن نأخذ بسنن الله تعالى في تغيير الأنفس: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». الرعد 10.